

ابن باديس

مَرَايِدُ الثَّوْرَةِ الْفِكْرِيَّةِ

للأستاذ عبد الرحمن الغريب

للمرة السابعة والعشرين يحتفل الشعب الجزائري بذكرى وفاة الاستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس . طيب الله ثراه .

ولقد كانت الحفلات الكثيرة التي أقيمت في أرجاء الوطن الجزائري هذه السنة . عنوان اعتراف الجزائريين بقيمة هذا المصلح العظيم ، الذي استطاع أن يجمع حوله وتحت قيادته خلاصة النخبة الموجودة إذ ذاك ليكون منها كتائب الكفاح ضد الاستعمار وأعدائه .

وساز على هذا الدرب حتى لاحت له بوارق الامل ، فسعى الى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . وكان للمخطط العام للجمعية محاربة الخرافة ومصارعة الدجالين الذين يعملون على تشويه الاسلام وتهيئة الرأي العام في الجزائر لفهم عمق الهدف على المدى البعيد . وانه ليصور حالة الامة في بدء كفاحه بقوله :

**برغم ما في الامة الجزائرية من
أصول الحيوية القوية ، فقد عرقتها
البلايا والمحن ، حتى استخذت وذلت ،
وسكنت على الضيم ورثمت للهوان ،
وبرغم ما بينها من روابط الوحدة**

رأى بن باديس ان أهم شيء يجب القيام به لاجراء الامة من ركودها هو التعليم فعكف ربع قرن يعلم الكبار والصغار لغتهم ودينهم . وتصدى ومعه صحبه لمحاربة الخرافات التي كان الاستعمار يفتديها ويحذب عليها ، ويفدق على دعائها عون المادي ورعايته الادبية .

لقد كان هدفه نشر التعاليم الصحيحة وتفهم العامة معنى الاسلام الخالص من اداران الوثنية والشرك ، وتبصيرهم بروح السنة النبوية ، وكان شعاره شعار مالك بن أنس رضي الله عنه : لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها .

ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلاذات أكبادها .

وكان سلاح بن باديس القرآن ، هذا الكتاب الذي احبب العرب واعطى للانسانية دستور الدارين . ولهذا كان يرى :

« ان القرآن الذي كون رجال السلف ، لا يكثر عليه ان يكون رجالا في الخلف ، لو احسن فهمه وتدبره ، وحملت الانفس على منهاجه » .

وتلتف حوله النخبة الطيبة ، ويلتم شمل الطيبة ، وتسير السفينة فوق الامواج المتلاطمة ، ويتغلب ربانها على الاعاصير والزواجع ويحس بنشوة النصر فينشد :

شعب الجزائر مسلم
والى العروبة ينتسب

من قال حاد عن اصله
او قال مات فقد كذب

او رام ادماجا له
رام المحال من الطلب

من كان يبغى ودنا
فعلى الكرامة والرحب

او كان يبغى ذلنا
فله المهانة والحرب

هذا نظام حياتنا
بالنور خط وباللهب

حتى يعود لشعبنا
من مجده ما قد ذهب

المتينة ، فقد عملت فيها يد الطرفية
الحركة تفريفا وتشتيتا ، حتى تركتها
اشلاء لا شعور لها ببعضها ولا نفع ،
تتخطفها وحوش البشرية من هنا
وهناك ، بسطان القوة على الأبدان ،
او سلطان الدجل على العقول
والقلوب .

ويدخل المعركة ومعه قلعة من الناس
من بينهم رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه ، وتبدأ المعركة وتحتد ،
وتتسع وتشتد ، ويرى بن باديس
بداية الثمرة ، فيقول عنها :

أيها الشعب الكريم .

ها أنت اليوم استيقظت من نوم
عميق وقتحت عينيك للحياة ،
ونهضت للعمل مع العاملين .

فتقو بالاتحاد وتسلح بالايमान
وتدروع بالصبر وتحصن بالثبات، سر
بهدهو ونظام في طريق الحق والخير
الى منزلتك الالاقية بك من الحياة
بين الشعوب .

واحتدم الصراع ، وحمي وطيس
المعركة ، وحاول الخصوم تضليل
الناس والتقول عنه بما لايمت الى
الحقيقة . فرد عليهم قائلا :

« هذه الامة التي ما عملت يوما
- علم الله - لارضائها لذاتها . وانما
عملت وما زلت تعمل لارضاء الله
بخدمه دينها ولغتها . ولكن الله
سددها في الفهم وارشدها الى صواب
الراي ، فتبينت قصدي على وجهه ،
واعمالى على حقيقتها ، فأعانت

- وبعد ارساء اسس العمل ،
والسعي في تنفيذ ما خططه ، بشرع
في العمل على توسيع الدائرة ، وببدا
في بناء المساجد حتى يتمكن الوعاظ
والمرشدون من نشر الفكرة الاسلامية
الصحيحة في المساجد التي لا تخضع
للمستعمر ، وينشط الناس ،
وتؤسس النوادي في أهم مدن القطر
ويتقاطر الشباب والكهول والشيوخ
على المراكز الاصلاحية .

ويتقدم الاستاذ الامام ليخاطب
الشعب فيقول له :

**« ايها الشعب انك برهنت بعملك
العظيم الشريف على انك شعبي
تمتسك للحرية هائم بها ، تلك الحرية
التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن
الحاملين للوائها ، وسنعرف في
المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف
نجيا ونموت لأجلها » .**

ولم يكن هم بن باديس احياء
الجزائر وحدها ، بل كان يرى ان
الواجب يقضي بالدعوة الى تكاتف
كل المسلمين والعمل على ربط الصلة
بين معتنقيه في كافة ارجاء المعمورة .

فكان يسعى للاتصال برجال الفكر
في العالم الاسلامي ويحاول - رغم
القيود الموجودة - تبليغ صوت
الجزائر الى اشقائها بكل الوسائل
الممكنة .

لقد كتب في مجلة الشهاب حول
هذا الموضوع كثيرا من المقالات .
وهذه احدى امانيه يقول فيها :

**« أتمنى لآخواننا المسلمين في كل
ناحية ان يشتغلوا بما يهم وينفع ،
ويعلو ويرفع ، ويعرضوا عن سفساف
الامور وبسائط المسائل ، فدينهم
دين العصم والمدنية ، لا دين الجمود
والهمجية ، وعصرهم عصر جد
وفصل ، لا عصر لعب وهزل ،
والمتخلف عن القافلة هو بلا شك
عرضة للاتعاب وطعمة للذئاب » .**

ودام كفاحه حتى آخر أيامه فلم
يهن ولم يضعف .

ان الناس ليزكرون موقفه ، حين
حاولت فرنسا ان تجبر رجال جمعية
العلماء على ارسال برقية تأييد
وولاء ، قبل اندلاع الحرب العالمية
الثانية ، لقد قال :

**« اني لن امضي البرقية ، ولن
ارسلها ، ولو قطعوا رأسي » .**

وماذا تستطيع فرنسا ان تعمله؟
ان لنا حياتين ، حياة مادية وحياة
ادبية وروحية ، انها قد تستطيع
القضاء على حياتنا المادية بقتلنا ونفينا
وسجننا وتشريدنا ، ولكنها لن
تستطيع القضاء على عقيدتنا
وسمعتنا وشرفنا فتحشرنا في زمرة
التملقين » .

وحين قررت الحكومة الفرنسية
بعد نصف شهر من اندلاع الحرب
فرض الإقامة الجبرية عليه ، قال :

**« ايظنون ان هذا يغير رأينا ،
ويمنعنا من التشهير بهم ؟ »**

وبنيت بالقرآن فضل حضارة
أقر لها كسرى واذعن قيصر
الى ان يقول :

لقد ناهز الخمسين في العمر دأباً
على الجدل لا يشكو ولا يتضجر
قضى ربع قرن ينشر العلم صابراً
على عقبات ما عليهن يصبر

فاذا كانت الجزائر تحتفل اليوم
بذكرى هذا المجاهد ، فانما تؤدي
جزءاً مما عليها حيال هذا المجاهد
الذي عاش للجزائر وبذل كل ما يملك
من جهد ومعرفة لتصل الى ما وصلت
إليه .

رحم الله بن باديس واسبق عليه
شآبيب الرضوان . وجزاه بما
يجازي به عباده الابرار ، المصطفين
الاخيار .

وان احسن صورة لابن باديس
يمكن تقديمها في هذه الذكرى هي
كلمات الشاعر الجزائري الاستاذ
محمد العيد آل خليفة ، التي قالها
بعد ختم تفسير القرآن في قسنطينة .

لقد اقيم بتلك المناسبة مهرجان
ضخم حضره اعيان الجزائر وفضلاؤها
من غرب الجزائر الى شرقها .
ابتهاجا بختم الاستاذ الامام لتفسير
القرآن كله بالجامع الاخضر
بقسنطينة .

بمثلك تعتر البلاد وتفخر
وتزهو بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئاً
بمخبر صدق لا يدانيه مخبر
فكم لك في القرآن فهم موفيق
وكم لك في القرآن قول محرر
قبست من القرآن مشعل حكمة
ينار به السر اللطيف ويصبر

* * *